العدد (1847) السنة السابعة - الاربعاء (14) تموز 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

في تحرشه الحذر بإشكالية العقل والنقل كما هي مطروحة على بساط البحث النظري عربياً منذ قرون، فإن المسدّي لا يقول لنا بصراحة؛ النقل من أي نص طالما هو يؤكد أن العقل لا يستقيم أمره في غياب مطلق للنقل. ثم يلتف على الموضوع نافياً أن تكون العقلانية قيمة مطلقة لأن في ذلك "جموح عن منازل العقل ذاته" ص١٢٧. أما كيف ذلك؟ فانه يدلنا على تلك الحقائق التي "يصدقها الحس ولا يستدل عليها ببرهان؛ كالجمال، والحب، والفن، والهوى، واللذة" ص١٢٧. ليؤكد نسبية العقلانية في القيم الثقافية. فهناك الأنا والآخر والكونية والخصوصية واختلاف الزمان والمكان وتبدل السياق. وهكذا يصل في الكلام إلى تلك القيمة الكبرى التي تدخل في صميم المنظومة الأخلاقية الإنسانية.. يقول؛ "إن للتسامح أشراطاً أعظمها وأجلّها إقرار حق الاختلاف،والتسليم بالندية الاعتبارية، وانتفاء منازع التسلط الحضاري والابتزاز الثقافي والتسخير الايديولوجي" ص١٢٨.

أفق النهضة وأسئلة الثقافة

قراءة في كتاب "نحو وعي ثقافي جديد" ٣ ـ ٣

سعد محمد رحيم
بغداد

هل يمكن أن نوجد وعياً ثقافياً جديداً أساسه سلطة العقل والنبل الإنساني وقيمة التسامح بالدعوات والصلوات والمواعظ الحسنة، أم أن ذلك يتطلب تغيرات جوهرية على أرضية الواقع الاجتماعي والاقتصادي وتشكيلاته العلائقية، وفي طبيعة العلاقات السياسية بين الحاكم والمحكوم وبين المجتمعات والدول. مع عدم إنكار ما للتطور الفكري ونضج الثقافة المنتجة من أدوار في هذا المجال.

أما أهم ما يعالجه المسدّي في كتابه فهو الذي يتعلق باللغة والوعي بآليات الخطاب: وهنا يواجهنا بأسئلة دقيقة حول البحث في السياسة من خلال اللغة أو العكس. مشيراً في البدء إلى أن "اللغة في الوجود أداة مطلقة، وهي في السياسة قيمة مقيدة، ولكنها في الإعلام وظيفة متحكمة" ص١٤١. هذا التقسيم سيكون له وظيفته في ميدان تحليلاته اللاحقة. وإذ يلخّص المسألة بهذه العبارات؛ "ليس مألوفاً عندنا أن نبحث في الآليات المحرّكة للغة في مجال السياسة؛ لأننا لم نتشبع نواميس استراتيجيات الخطاب عموماً وقوانين استراتيجيات الخطاب السياسي تخصيصاً" ص١٤١. فانه سيلج هذا الحقل الجديد في الفضاء المعرفي العربي بعدّه احد أساتذته، وله، كما نعلم، بحوثه وأفكاره بهذا الشأن.

في رأيه أن اللغة هي مركز الفعل السياسي إلى جانب كونها نواة المركزية الجديدة للكون وظواهرها والوجود المتعين فيها. وقد استثمرت السياسة اللغة لمصلحتها فيما أضاعت اللغة بعضاً من حياديتها وبراءتها في معترك السياسة. وهكذا تخطت اللغة وظيفتها الإبلاغية لتكون صانعة للفعل السياسي حتى أمست "جوهر الحدث السياسي في ذاته ولذاته" ص١٤٣.

لا يستقيم اليوم فهم الحياة السياسية والحضارية من غير البحث في شبكة علاقات اللغة والسياسة وإنتاج الخطاب السياسي. ولابد من إدراك "كيف يتم إنتاج الخطاب السياسي وكيف يتم استقباله؟" ص١٤٦ فتصنيع "الواقع ما يسمى في علم تحليل الخطاب بمبدأ التموضع، ويعني أن المتكلم ما إن يتفوه بكلامه حتى يكون قد اتخذ موقعه داخل كل جزء من أجزاء كلامه، وهكذا ينكشف أن من خصائص اللغة أنها تصنع الدلالة أحياناً بما لا تقوله أكثر مما تصنعها بما تقوله، وينكشف أيضاً أن الحياد المطلق متعذر على المتكلم في استخدامه اللغة" ص١٥٨. هنا تظهر خطورة اللغة؛ مع هذه الصفة المراوغة الزلقة فيها. هذه القوة المضمرة التي تحتاج براعة منتج الخطاب وفطنة متلقيه، لتفعيلها. يتبادل المقول والمسكوت عنه الأدوار، كما المنتج والمتلقي في الحقل الدلالي للخطاب؛ في عملية إطلاق الدلالات واصطيادها. ودائماً مع التأكيد على وهم براءة اللغة، وعلى نسبية الموضوعية الفكرية، وفاعلية الموجّه الايديولوجي في استراتيجيات التسمية. سيطرح المسدّي الآن مثالاً أول؛ (العالم لعربي) أم (الوطن العربي)؟. للاصطلاح الأول تاريخ إذ وضعه المستشرقون بحسن نية أو سوء قصد ليجعلوه مخالفاً لمفهوم العالم الحر والعالم المتقدم، وقريناً في الدلالة والإيحاء لعبارة العالم الثالث التي تم تكريسها للدلالة على العالم المتخلف. هذا هو رأي المسدّي في المسألة. وماذا لو استخدمنا عبارة (الوطن العربي)؟. هكذا يرى المسدّي مفاد مضمونها الإيحائي؛ "إن العرب جميعاً ذوو انتماء جماعي واحد، وأنه من المفروض أن يكونوا في وطن واحد، وأن التاريخ هو الذي حوّل دولتهم إلى دويلات، وداخل هذا التصور ينبغي أن نسمّي تلك الدويلات أقطاراً لا أوطاناً" ص١٥٩. جملة من التساؤلات تبرز أمامنا ونحن نقرأ هذا المقطع من أطروحة المسدّي، وهي تساؤلات يفرضها منطق الحوار الذي يدعو إليه الكاتب؛

هل المتلقون جميعاً يشاركون المسدّي في تأويله عبارة (الوطن العربي)؟ أهذا هو مفاد مضمونها الإيحائي عند الجميع؟. وإذا اتفقنا معه أن العرب ذوو انتماء جماعي واحد، ومن المفروض أن يكونوا في وطن واحد، فهل كانت لهم دولة (عربية) واحدة في أي يوم؟ عن أية دولة نتحدث؟ أعن الإمبراطوريات الرخوة المقدسة السابقة (بعبارة فالح عبد الجبار)؟. الدولة العباسية كانت امبراطورية اسلامية عالمية خالصة، والدولة العثمانية كانت امبراطورية استعمارية عالمية خالصة؟ وحين جاء الاستعمار الغربي لم تكن البلاد العربية سوى أقاليم متشرذمة متخلفة تاريخياً ومحكومة من قبل الباب العالي؟. ألا يقول المصريون أن جمال عبد الناصر هو أول مصري يحكم مصر منذ أكثر من ألفي سنة؟ وماذا بشأن التاريخ الذي حوّل دولتهم إلى دويلات؟ ماذا يقصد المسدّي بهذا العدو الشبحي المجرد؟ ثم لماذا لا نعيد صياغة الإشكالية العربية ونتحدث عن الدولة العربية الواحدة/ الحلم بعدّها مقترحاً تاريخياً ممكناً يكتسب مسوّغاته وشرعيته من تناقضات وتحديات الحاضر والمستقبل أكثر من مخلفات الماضي والتاريخ وذكرياتهما الرومانسية ووطأة إرثهما الثقيلة، ويتحقق بالإرادة السياسية والتخطيط العقلاني والعمل المنظّم؟.

يختار المسدّي مثالاً آخر أكثر التباساً؛ (المقاومون الانتحاريون الاستشهاديون الإرهابيون) كذلك (الفدائي، الانتفاضة، حرب الأيام الستة، الخ).. يرصد كيفية تعامل الإعلام العربي، لاسيما الفضائيات، مع المفاهيم المذكورة.. وكيف أن وعي الراصد اللغوي ينجرح انجراحاً قاسياً في كل يوم.. يقول؛ "ولا نعني . هنا . انجراح الاختيارات المضمنة، وإنما نعني فقط ما تفضحه اللغة من غفلة كاملة عن آليات التضمين وأدوات التوظيب بحيث ينكشف أن الإعلام العربي ضحية الغفلة أكثر مما هو ضحية الاختيارات والرؤى" ص١٦٥.

بتشريحه لمضمرات الاستخدام الإعلامي لمصطلحات (المقاومون الانتحاريون الاستشهاديون الإرهابيون) في وصف الأعمال المسلحة في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان، يبدو المسدّي وكأنه يضع تلكم الأعمال جميعاً في سلّة واحدة، وتلكم الأماكن في سياق سياسي واحد، وهذا تمويه يمارسه المسدّي، نفسه، على صعيد اللغة.. يقول؛ "فكثيراً ما يحصل أن العملية تستهدف جنوداً إسرائيليين أو جنوداً أمريكيين أو جنوداً روسيين ولا تستهدف المدنيين على الإطلاق، ولا المنشآت الحيوية، ولا المدارس، ولا المستشفيات، ولا حافلات النقل العمومي". ص١٦٢.١٦٣. إن ما حصل في العراق خلال السنوات السبع الأخيرة، على سبيل المثال، يدحض تماماً عبارة (على الإطلاق) الواردة في المقطع الذي اقتبسناه من كتاب المسدّي. ومراجعة أرقام الضحايا ومتابعة يومية بسيطة للأخبار تعلمنا أن من يموتون بسبب الأعمال المسلحة في العراق من المدنيين الأبرياء هو عشرات الأضعاف ممن يموتون من الأمريكيين المحتلين، فإذن ماذا نسمي الذين يفجّرون أنفسهم في الأسواق والجوامع والمستشفيات والمنشآت العامة، مصطحبين معهم المئات والألوف إلى الآخرة؟ ماذا نسمّي تلك المنطقة الرمادية أو بالأحرى القاتمة التي تقع بين فراغات الاصطلاحات الواردة أعلاه، حيث باسم المقاومة يُقتل أبناء الوطن وتحت ذريعة الاستشهاد تُقاد البلاد إلى حرب أهلية؟ ألا تحرِّف الفكرة الرومانسية القبلية عن المقاومة رؤيتنا للواقع كما هو بمعطياته الحقيقية؟ أليس من الواجب أن نتحلى بالجرأة ونتخطى معيار الثنائيات المتضادة في عملية القراءة، ونحلل بموضوعية وضعنا الاجتماعي والسياسي من منظور علمي تاريخي، لنقع على المستويات والاشكاليات المركّبة للواقع العربي مثلما أفرزتها وقائع العقود الأخيرة منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧؟ أليس ما يقتضيه الوعي الثقافي الجديد الذي يطالبنا به المسدّي هو الوصول إلى الحقيقة حتى وإن اضطررنا إلى نشر الغسيل القذر؟ أنبقى، على الدوام، نلوم (الآخر)، وهو لا شك يتحمل جزءاً من مسؤولية ما آلت إليه أحوالنا، ولا نلتفت إلى أنفسنا لنرى مقدار ما أصبنا به من تشوهات وعلل؟. كانت حركات التحرر العربية والعالم ثالثية ضرورية تاريخياً وذات محمولات وطنية وأخلاقية لا غبار عليها، إلاّ أنها لم تنجُ من أمراض أصابتها. وعلينا أن ننزع ثوب القداسة عن ذلك التاريخ لنقرأه في جانبه الآخر، غير البطولي، أقصد؛ الإيديولوجي والاجتماعي والسياسي. وإذ تغدو إعادة اكتشافنا للغة، بإلحاح المسدّي، بابنا المتعيّن للوعي الثقافي الجديد. فإذن لنحذر المصطلحات التي تتسرب إلينا من حافظة الايديولوجيات الشعبوية والثوروية المغشوشة، لنعيد صلتنا بالواقع، ومن ثم نبني الذات وخطابها في أفق العلم والمعرفة والكفاح الحقيقي، حينذاك سنغير خارطة العالم واتجاه التاريخ عبر تغيير موقعنا فيهما.

وإذ يتهم المسدّي، عبر رؤية شعبوية ضيقة، الآخر أبداً فإنه يبرئ ساحة الذات غالباً. والمسكوت عنه هنا، والذي يغيب عنه، هو أن معادلة الهيمنة المختلة من جانب آخر هي وليدة ضعف مجتمعاتنا العربية وتناقضاتها الداخلية وتخلفها على الصُعد كافة. وما سؤال الهوية المطروح بقوة اليوم نتيجة ضغط آليات العولمة واشتغالاتها إلا مظهر من مظاهر أزمة ذاتية داخلية تتطلب النظر إليها ومعالجتها، من الداخل، في سياقها الاجتماعي والسياسي الصحيح.

من أمراضنا المستعصية، بإشارة المسدّي، عملنا على ضياع هويتنا اللغوية. وليست اللغات الأجنبية هي العدو الشرس الذي سيجهز على اللغة العربية بل اللهجات العامية التي غزت المنابر الإعلامية السمعية والبصرية. ويقر بأن الوزن الاعتباري للغة العربية لدى كل فئات مجتمعاتنا أيام الاستعمار كان أضعاف ما لها منه الآن بعد عقود من دولة الاستقلال؟ وأظن أن الإجابة على ملاحظته التي يخرجها في صيغة سؤال يلقيها بوجه ساسة العرب تكمن لا في إخفاق دولة الاستقلال فقط وإنما في موجِّهها الإيديولوجي الشعبوي، وقبل ذلك في طبيعة وشكل الكفاح السابق الذي قاد إلى التحرر من الاستعمار، لكنه، بالمقابل، أورثنا اختلالاته البنيوية وضيق أفقه. أما السؤال الذي يطرحه المسدّي بهذا الصدد فهو في غاية الأهمية؛ "كيف نتحدث عن الموارد البشرية وتنميتها، أو عن التخطيط المستقبلي الشامل، ونحن نعيش انفصاماً بين أدوات المنظومة التربوية وشروط النهضة الحضارية؟ كيف نرقى إلى آليات الاستثمار في حقل التواصل؟" ص١٧٦. من هنا يمنح اللغة دوراً ووظيفة في تشييد المعمار الحضاري وبناء الصرح الثقافي لا يمنحهما لغيرها. إنها معركة حضارية مؤداها؛ "صراع بين الثقافات، وتطاحن في الهويات، وتناحر على القناعات، ثم هي قبل ذلك كله، وبعد ذلك كله، تقاتل على مراكز النفوذ اللغوي" ص ١٨٤.

إن اعتقاده بأسبقية العامل الثقافي في البناء النهضوي يقوده إلى تقرير أسبقية العامل اللغوي في البناء الثقافي، وهكذا ستكون اللغة، لا الاقتصاد ولا السياسة، ولا حتى الثقافة، هي قاعدة التحوّل التاريخي، والصراع في مضمارها هو محرّك التاريخ!. وبذا نعود من الباب الضيق للعامل الأول/ الأوحد في تفسير التطور التاريخي.

لا يخلو نظرة المسدّي إلى التاريخ من مسحة تاريخانية تكون حاسمة أحياناً.. يقول؛ "قد لا يجادل أحد في أن التاريخ ـ بمفهومه المعرفي العميق ـ لا ينشد إلاّ التمدن بحيث تغدو الحضارة الإنسانية نفسها مسباراً لحركة التاريخ البشري في امتدادها وانعطافها، وفي قرارها واهتزازها، بل وفي فيضها بعد انحسار، أو انكسارها بعد إقبال" ص١٠٥. غير أنه يحقن تلك النظرة بفكرة صراع الحضارات وجوهرها عنده منطق التحدي والاستجابة.. يقول؛ "فحركة التاريخ ـ على غالب أمرها ـ تعاقب بين مد وجزر، يتحكمها ناموس الغلبة والمغالبة بين الحضارات، وهذا هو معنى الصراع الذي يقوم عليه كثير من الفلاسفة مفهومهم لحركة التاريخ وإن تقيدت لدى بعضهم بحدود تقصر عن استيعاب أمر الحضارة كلياً" ص١٠٥.

ومثلما نوهنا في موضع سابق من هذه المقالة أغفل المسدّي، وهو يخوض في تحديد عوامل ومقومات وطبيعة واستراتيجيات الوعي الثقافي الجديد عن المشكل الأهم في أي مشروع تاريخي وهو؛ ما هي الفئة أو التشكيلة (الفئات أو التشكيلات) الاجتماعية/ الاقتصادية (صاحبة المصلحة) التي يمكنها أن تتبنى هذا المشروع النهضوي، وتجعله واقعاً متحققاً؟. والمعروف أن ولوج هذه الناحية من المسألة سيفضي لا ريب إلى الكلام عن التناحرات الاجتماعية والصراعات الطبقية التي، ربما، لا يرغب المسدّي بإثارتها.

وصلنا الفكر القومي متأخراً، متشرباً بشيء من الرومانسية الحالمة، ومثقلاً بالعواطف والانفعالات. وإذا كانت الفكرة القومية الأوربية قد بنيت على واقعة تأسيس الدولة ـ الأمة منذ القرن الثامن عشر فإن الفكرة القومية العربية ظلت عند حدود الآمال والتمنيات، وفشلت فشلاً مدوّياً حين تبنتها شريحة العسكريتاريا الريفية المغامرة والمحدودة الأفق. في حين أن الدولة بمفهومها المديني والحضاري والمرتبطة بعصر الحداثة الصناعية وما بعد الصناعية وقيمها لم نعرفها حتى هذه الساعة، حتى قطرياً، في معظم البلدان العربية. واعتقد أن معالجة مشكلات المواطنة والحرية والتنمية والإصلاح السياسي واللغة وإنتاج الخطاب لن تكون مجدية من غير تأطيرها (في النظرية والتطبيق) في ضمن إشكالية بناء الدولة الحديثة. وهذا ما لم يتوسع في دراسته المسدّي. وآمل أن يُكمل هذا النقص ـ هو الضليع في حقل الدراسات اللغوية والإنسانية ـ في كتاب لاحق.

(نحو وعي ثقافي جديد) كتاب مكتوب للنخبة، أو لنخبة النخبة. ثمة فخامة في اللغة، وتنوع في استخدام المجاز والاستعارات، وكذلك لا يخلو الأسلوب من بعض التقعر في مواضع معينة، وحتى الاصطلاحات الأجنبية لا يجهد في تعريبها. ربما لكي يتجنب ما يمكن أن يحصل من التباس في التفسير والتأويل، تاركاً للقارئ هامشاً واسعاً من الحرية في الفهم. أو هو لا يريد الخوض في تفريعات يظن أنه في غنى عنها.

يضع الدكتور عبد السلام المسدّي، في كتابه هذا، على طاولة التشريح النظري، جملة قضايا حساسة وخطيرة (الثقافة والسياسة والهوية والذات والآخر والحرية والعقل واللغة وإنتاج وتحليل وتداول الخطاب، الخ) عبر قراءة متفحصة وجريئة لمعطيات واقعنا السياسي والثقافي. ومعه يطرح أسئلة تقترح أفقاً واسعاً للتناول النقدي، في محاولة لاستنطاق بعض من المسكوت عنه من جوانب ثقافتنا. وعلى الرغم من مشكلاتنا المركبة والمعقّدة، وعثرات خطواتنا في مسالك الرقي والتحضر، واضطراب حياتنا السياسية والاجتماعية، وتخلفنا الاقتصادي، يظل فضاؤنا الثقافي قادراً على إنتاج مثل هذا الكتاب الذي هو دليل عافية فكرية تنتصر لقيم العلم والعقلانية والحرية والتسامح والانفتاح والتواصل الحضاري والنهضة؛ زادنا ورهان سعينا في طرقات القرن الواحد والعشرين.